بين الغرب والشرق

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم

— ١ —

« إن العقلية الغربية هى العقلية التى تتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا . ونحن نتبع وحى هذه العقلية بحكم أننا وجدنا فى هذه الحياة الدنيا . أما العقلية الشرقية فتلائم الحياة الباقية ، فاذا انتقلنا إلى الاخرى فهنالك نتبع وحى هذه العقلية »

هابل آدم

قرأت ما كتبه صديقى الأديب النابغة فليكس فارس فى عدد الرسالة السالف فى موضوع الشرق والغرب ؛ وكان حرياً بى ألا أرد على ما يكتبه صديقى ومناظرى من ردّ لآرائى التى سبق أن أدليت بها فى مناظرتى معه منذ عام أو أكثر من على منبر جمعية الشبان المسيحية بالأسكندرية والتى نشرتها فى وقتها (المجلة الجديدة) ، لأنى أعتقد أني فى حينها أعقبت عليها بما رأيت فيه الكفاية لإثبات وجهة نظرى فى الموضوع[1] . ولكن مناظرى وقد أخذ من ردّه علىّ ما رآه اليوم ذا صلة وثيقة بذلك الحديث الذى أجراه الأستاذ الكبير توفيق الحكيم على لسان الروسى والمصري حول الشرق والغرب فى روايته « عصفور من الشرق » التى صدرت خلال الشهر الماضى . ولقد أثار الأستاذ فليكس فارس فى مقاله مسائل أعتقد أنى بينت زعمها وجانبتها لحقائق الأمور في تعقيبي عليه ، لهذا عمدت بدورى إلى تعقيبي على رد مناظرى الأستاذ فارس لآخذ منه ما يدفع آراءه التى يؤيد بها اليوم إعانه بتفوق ثقافة الشرق

* * *

لكل شعب فى العالم تراثه التقليدى الذى خرج به من ماضيه ، والذى يحف به فى حاضره ، والذى يكمن فيه مقدمات مستقبله — تلك التى نطلق عليها اصطلاح « روح الأمة » — وهو الذى يربط ماضى جماعة من الجماعات بحاضرها ويمضى بها إلى مستقبلها . ومصر لم تخرج عن كونها مجتمعاً استوحى روح الشرق عصوراً متطاولة وخرج ككل أمة بثقافة تقليدية كونها على مدى تاريخه الطويل . وإن وقف مجتمع مصر اليوم من سير الزمن بطل على حاضر افتقدت فيه عناصر الحيوية فى ثقافته التقليدية ، تلك الثقافة التى كوّنتها مصر بما ورثته عن أسلافها الفراعنة فى أصول الفن الفرعونى القديم ومظاهر الحياة المعاشية التى ترتكز عليها حياتها الإجتماعية . ويكفينا للتثبت من هذه الحقيقة أن نلقى نظرة على الملايين المديدة التى تنزل ريف مصر والتى تنتشر على ضفتى النيل من الشلال حتى البحر الأبيض المتوسط ، فى حياتها المعاشية التى يرتكز عليها المجتمع المصرى ، وأن نرجع ببصرنا إلى الماضى بعدئذ مستمدين من النقوش التى قرئت على الآثار والهياكل والتى انبثت على جنبات الوادي فى مصر ، ومن الكتابات التى خطت على أوراق البردى والتى صورت حياة المصريين فى العهد الفرعونى ، لنخرج بصورة تمثل وحدة الحياة المعاشية فى مصر من عهد الفراعنة إلى يومنا هذا . وذلك راجع إلى أن الحياة المعاشية صورة من احتياجات البيئة التى يعيش فيها الإنسان ؛ والبيئة واحتياجاتها لاتزال على وتيرتها الأولى فى ريف مصر حيث ينزل معظم أبناء مصر . خذ إلي جانب ذلك منطق التفكير وأسلوب الصياغة ، وأعنى بذلك اللغة من حيث هى صوغ المعانى ، والدين ، مما اكتسبته مصر من العرب فكان ركناً من أركان الثقافة التقليدية لمصر . ولقد اختلطت هاتان الثقافتان ، الفرعونية من جانب والعربية من جانب ، فكان من ذلك مزيج . ذلك ما نعبر عنه بالثقافة التقليدية لمصر منذ أيام الفتح العربى

أما ما أثاره مناظرى الأديب فليكس فارس من اعتراض على قولى إن الحياة المعاشية التى يحياها المصرى الآن تجرى على غرار ما كان يحياه أسلافه الفراعنة بقوله وأنا لا أرى فى حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية لا فى الحياة العملية ويعنى بذلك المعاشية ولا فى الحياة الأدبية ، فإننى لا أجد صعوبة فى دفع اعتراضه فأقول وأنا أرى فى حياة المصريين اليوم أثراً

(١) كانت المناظرة مساء ٢٩ مارس سنة ١٩٣٧ بدار جمعة الشبان المسيحية بالاسكندرية ، وكان موضوع المناظرة « من الخير لمصر أن تأخذ بالحضارة الغربية » وكان يؤيد الوجهة الايجابية الدكتور اسماعيل أحمد أدهم ويعارضه الاستاذ فليكس فارس ، وقد نشرت المجلة الجديدة بعددها الصادر فى مايو سنة ١٩٣٧ كلمة الدكتور أدهم فى الموضوع ، ومن المهم أن نقول أن الآراء توزعت بين الرأيين بالتساوى فى المناظرة

من الحضارة الفرعونية فى حياة الشعب الماشية ! !

وأظن أن إثارة الاعتراضات ودفع الاعتراضات لا يقوم على مجرد القول بأنى أرى أو لا أرى ، إنما تقوم على البحث والتحليل والنقد المستقصى . فإذا قلت إنى لا أرى بى حاجة لدفع اعتراض مناظرى ، فذلك واضح لأنه لم يأت بأكثر من قوله إنى لا أرى !

ومع ذلك أحب أن ألفت نظر مناظرى إلى أصول الرى عند الفلاح المصرى ونظام معيشته ومسكنه الريفى وجلبابه الأزرق وعاداته وتوا كله وانصرافه عن كل شىء لقطعة الأرض التى يزرعها ، الشىء الذى لم يتغير فى مصر منذ سبعة آلاف سنة مما يتضح للباحث من أبسط مقارنة بين فلاح اليوم فى مصر الحديثة وفلاح الأمس البعيد فى مصر الفرعونية ، الشىء الذى يثبت أن الثقافة التقليدية تقوم على أساس من الفرعونية من ناحيتها الماشية ؛ وإذا قلت الفرعونية فانما أعنى أن وحدة الحياة الماشية تتمشى فى ثقافة المصريين التقليدية حتى العهد الفرعونى .

إذا صح هـذا ، فكأن الثقافة التقليدية لمصر من ناحيتها الماشية فرعونية ، أما من ناحيتها العقلية فهى فرعونية تكيفت تبعاً لها الثقافة العربية تكيفاً يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية فى عهد الحكم الرومانى من ملابسات لتجارى فن الحياة فى ذلك العصر . ومن هنا قامت أو قل استمدت اللغة العربية فى مصر قدرتها على صوغ المعانى بما يتكافأ ومحيط مصر ، فكانت اللغة العامية فى مصر ، وهى فى الحقيقة الفرعونية الآخـذة بأسباب التعرّب ، ثم كان الدين الاسلامى ومنطق التفكير مما يكافىء الطبيعة المصرية الفرعونية ، وهـذا ما يثبته دخول الكثير من عادات وتقاليد المصريين فى تضاعيف العقيدة الدينية . يقول الدكتور سليم حسن بك عالم الآثار المعروف :

« إن كل ما كان يحرزه المصرى القديم من عادات وفن ودين إلى عصر الفتح الاسلامى قد سلمه برمته إلى مصر الاسلامية ، اللهم الاّ اللغة والدين — على أن الأولى بقيت على قيد الحياة وأثرت فى اللغة العربية فى مصر إلى أن اندثرت فى القرن السابع عشر وأقصد بذلك اللغة القبطية . أما الدين المصرى القديم فقد ظهر عليه الدين المسيحي ثم الاسلامى لفظاً وشكلا . والواقع أن معظم الطقوس الدينية فى مصر الحديثة ترجع فى أصلها إلى مصر القديمة وهى تعد فى الدين الاسلامي بدعاً » وأنت ترى أن الإخصائيين فى مصر الفرعونية يحكمون لنا فى قضيتنا أن ثقافة مصر العقلية التقليدية فرعونية الأصل تكيفت تبعاً للثقافة التقليدية العربية تكيفا يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية من ملابسات لتجارى فن الحياة فى عصر الفتح الاسلامى .

وهذه الثقافة التقليدية التى تتمثل صورها فى سريرة كل مصرى هى قرارة الذهنية المصرية . ولا يمكن أن تنقطع أوصال هذه العقلية من حيث هي تنزل عند حكم فطرة الشعب ما لم يهتز ذلك المجتمع المصري هزاً عنيفاً ويدلف إلى حياة جديدة تتقطع معها أحكام البيئة والمحيط التى احتضنت ثقافة مصر التقليدية نتيجة لتكافئها معها . وما دامت لم تفز مصر بثقافة جديدة تهز المجتمع المصرى فى صميمه ، فليس هنا لك سبيل لتقطع ثقافة مصر التقليدية .

إذن فلنصرف الكلام عن ذلك ولنبحث فى هل هنالك من سبيل لتلقيح الثقافة التقليدية لمصر بعناصر أجنبية تبعث فيها النشاط وتدفعها لآفاق جديدة تتفق وحالات هذا العصر . وإذن يكون موضع الخلاف الأساسى بينى وبين مناظرى : هل من الخير لمصر أن تلقح ثقافتها التقليدية بعناصر من الثقافة الغربية لتساير مجرى الحياة ، أم تمضى فى أخذها عن الثقافة الشرقية ؟

هذا هو موضوع الخلاف بين الشرق والغرب بالنسبة لمصر ، وإذا قلت مصر ، فانما أعنى مصر وحدها ، لأن لمصر ثقافتها التقليدية التى تباين ثقافة السوريين التقليدية أو ثقافة اللبنانيين التقليدية ، وما ينجح لمصر قد لا ينجح لغيرها

أما وقد وصلنا من البحث إلى هذا الحدّ ، فلننظر قليلا فى بحث معنى الثقافة ، لأنى أتبين خلافاً خطيراً بينى وبين مناظرى فى مفهوم الثقافة والعلم

وإنى لأشعر قبـل أن أدلف إلى أغوار البحث بخطورة ما سأدلى به ، ذلك لأنى أجد التفرقة بين العلم الوضعى والثقافة اعتبارياً . وإن كانت صيغة العلم موضوعية وصيغة الثقافة تتسم بطباع الذاتية . ذلك لأنه لا يمكن فى عالمنا الحاضر التفرقة بين الثقافة والعلم ، لأن الأولى نتيجة للثانى ، وليس ذلك نتيجة لاغترار ذهنى ، وإنما نتيجة للنظر فى مجتمعنا الراهن حيث يسود

العلم الوضعى كل شىء، وينزل المنطق العلمى البحث أساساً لكل شىء . فان الحضارة الراهنة ... الآلية بصورها المادية نتيجة لاستخدام المنطق العلمى فى استغلال الطبيعة لصالح الانسان ، وكانت نتيجة استخدام المنطق العلمى أن نشأت حضارة تغلبها النزعة المادية تنزل منها ثقافتنا العصرية منزلة التاج ، ولا يمكن لمجتمع أن يأخذ من العلم الوضعى نتائجه فيستخدمها دون أن يأخذ منطقه الذى يؤدى إلى هذه النتائج إلا ويكون عالة على الانسانية. وأرفع مثال ذلك اليابان التى ضربت بها مثلاً على أن أمة من الأمم لا تأخذ بالثقافة الغربية إلا وتنهض ، فان اليابان ما نهضت إلا بأخذ الآلة والآلة فقط ، ولذلك كان نهوضها آلياً لأنها لم تأخذ منطق التفكير الأوربى نتيجة لاحتفاظها بشرقيتها ومنطق تفكيرها التقليدى . وهذه حقيقة كبرى كما يقول مناظرى ، ولكن تقوم برهاناً على صحة كلامى ، فاليابان اليوم عائشة عالة على أوربا وعلم أوربا ، لأنها لم تأخذ علم أوربا ومنطق تفكير أوربا ، فكان نجاحها وقفاً على الآلة التى استعبدت أهلها فعاشوا ثمانين مليوناً من البشر في مرتبة أحط من السوائم والحيوانات إذ لم يرتفعوا إلى مرتبة الشعور بالحياة الانسانية وكرامتها والنضال من أجلها كما هو الحال فى أوربا حيث يعمل العامل للتحرر من استعباد الآلة

أظن أنى خرجت عن الموضوع

إن ثقافة اليوم من حيث أنها تتبع العلم لا يمكن تخليصها من آثار العلم ، والثقافة الأدبية يغزوها اليوم العلم بمنهجه الصارم ومنطقه ، فمن الخطأ أن نفرق بين الثقافة من حيث أنها نتيجة معاشية وأسلوب فى الحياة وبين العلم ومنطقه وهى أداة اليوم للعيش والحياة

إن الفرق بين الشرق والغرب ينحصر فى هذا وحده : الغرب يقيم الحياة على أساس إنسانى ويترك للعلم أن ينظم الصلات الانسانية بين البشر ؛ والشرق يقيم الحياة على أساس غيبى ، ترك للغيبيات تنظيم الصلات بين البشر . الغرب يقيم حياته على أساس من التفكير فى إيجاد التكافؤ بين حاجاته ومحيطه مستخدماً فى ذلك العلم ؛ والشرق يقيم حياته على أساس من التواكل . ولهذا لما أخذت اليابان الآلة لم تعمل على إيجاد التكافؤ بين الحياة الجديدة التى دلف إليها اليابانيون وبين حاجات هذه الحياة الجديدة ، لأن التواكل هنالك يقوم مقام العمل والتفكير، فكانت نتيجة ذلك أن استعبدت الآلة أهل اليابان

لا أرغب فى التوسع أكثر من هذا فى هذا الموضوع الآن

* * *

فى ضوء ما قدمت يفهم معنى عبارتى : « للشرق روحه الذى يستوحيه أبناؤه نزولاً على فطرتهم ، وللغرب منطقه الذى يستنير به أفراده نزولاً على وحى مشاعرهم » ، تلك العبارة التى جعلت مناظرى يستغرب مقالى لأن فيه حصراً للمنطق فى الغرب . وفى الواقع ما هو حصر للمنطق فيهم ، ولكن شاء الشرقيون أن يحصروه فيهم متابعة لدعوات خطيرة مثل التى يقوم بها اليوم الأستاذ فليكس فارس !

المنطق مشاع بين الأمم ، ولكن يجب أن تمرن الأمم عليه قبل أن تصبح متفلفة فى تفكيرها ، إذ ليس المنطق أسلوباً فى التفكير يتبع وأفيسة يجرى عليها ، إنما هى قبل هذا كله ميل عقلى واتجاه ذهنى يمكن أن يكتسب

أما قول مناظرى « وما اخترع الغرب المنطق ولا هو أوجد التفكير العلمى » فذلك مجانب للحقائق المعروفة فى التاريخ من أن الاغريق هم أول من عرفوا المنطق وأوجدوا التفكير العلمى وعنهم أخذ العالم المنطق . ولا أظن أن هذا موضع نقاش ، وإنما يظهر أن الروح الشعرية تغلب مناظرى فتجعله يتناسى كل حقائق العالم !

أقف عند هذا الحد فى هذا المقال فى دفع اعتراضات مناظرى الأستاذ فليكس فارس ، ولنا فى المقال الثانى عودة لموضوع الثقافة والعلم وثقافة العرب وثقافة الغرب

وأنتهز هذه الفرصة لأدعو أنصار الثقافة الغربية للكتابة فى موضوع الأخذ بثقافة الغرب لهذا الشرق النائم ، وفى مقدمة هؤلاء أدعو صديقى الدكتور حسين فوزى صاحب « سندباد عصرى » أن يبدى آراءه بصراحة فى الموضوع ، ولعل فى هذا النقاش يكون الحد الفاصل بين القول بالشرق والغرب !

اسماعيل احمد أدهم